من الأدب الانكليزي

٣ - پرسي شـــلي

Percy - Shelley

تتمـــة

بقلم خليل جمعه الطوال

تعريف للشعر والشاعر

لشلي نظرية في الشعر طويلة لا يتسع مقالنا هذا لاستيعابها بكاملها ، نقتطف منها إحاطة بالموضوع من جميع نواحيه مايأتي :

ليس الشعر بالحدث الطارىء الجديد على عواطفنا ولا من صفاتنا المكتسبة بطول التمرس والمران ، بل هو فينا غريزة فطرية كغريزة الجوع والنوم والكلام والألم ، وليس ما نبديه من الحركات المبهمة والاشارات الغامضة ، أو ما نفوه به من الكلام وتجيش به صدورنا من العواطف المضطرمة إلا أنواعا من الشعر في أدنى مواضعه وأضيق حدوده . ولولا ما فينا من عواطف الشعر الهائجة الكامنة والثائرة الوادعة ، لما كنا نكتئب ونفرح لأوهى الصدمات وأدنى المؤثرات

وليس الشعر بعلم من العلوم التطبيقية كالهندسة والكيمياء وكالفلك والكهرباء وإلى ما هنالك من العلوم التي تعتمد على التجربة ولا تثبت إلا بالبرهان ، بل هو فن من الفنون الجميلة — وهي الرسم والموسيقى والرقص والغناء والشعر والبناء — التي تعنى بظواهر الأشياء وأشكالها دون باطنها ، وبجالها وأعراضها دون جوهرها : وما الانسان إلا كآلة موسيقية تتعاقب عليها شتى الانفعالات الداخلية والمؤثرات الخارجية : فتتجاوب أوتارها لكل منها بنغمة خاصة تختلف عن سالفتها في الدرجة لا في النوع

لقد كان الانسان في بدء أطواره يقلد مختلف الظواهر الطبيعية بحركاته وسكناته ، فكان كل من هزيم الرعد ، وهزيز الريح ، وزمزمة النار ، وخرير المياه ، وحفيف الأشجار ، وقد غردت فوقها الأطيار الجميلة الألوان والشجية الألحان ، يحدث في نفسه انفعالات داخلية عديدة ، وشحنات كهربائية عنيفة ، لا يرى لها مخرجاً إلا في فنٍّ من الفنون الجميلة ، ولكن الناس ليسوا سواءً في الاستجابة لهذه المؤثرات ، فهم وإن تشابهوا في نوع إحساساتهم إلا أن فيهم البليد الشعور ، وفيهم السريع الانفعال ، وهذا الأخير هو ما نسميه اصطلاحاً بالشاعر

والشعرُ يتكىء على الخيال كما يتكىء على الحقيقة ، ويعتمد على اللغة بمقدار ما يعتمد على الموسيقى والغناء . وليست هذه الأشياء في مجموعها إلا من مكوناتِ الشاعر الأولية ، وبمقدار حظه منها يكون حظه من الشاعرية

على أن أسمى مظاهر الشعر وأبينها هي تلك العواطف والانفعالات المنضوحة في وعاء من الكلام الموزون المقفى ؛ ذلك لأن جمال اللغة وموسيقى الألفاظ ، أقرب إلى الخيال وأعمل في اذكاء النفس وارهاف الحس من التصوير والبناء ، ونغمة الآلة والرقص والغناء . ولكنْ هذه المفاضلة تحصر الشعر في دائرة ضيقة ، لا تتسع لاستيعاب ذلك الخيال المشبوب وتلك العاطفة الوثابة اللذين لا يجدان لهما من منفذ آخر عدا الشعر المقفى إلا بالتلحين وبالحركات . ومن هنا كان تفرع الرقص والغناء عن الشعر الذي هو الأساس .

الشعر هو تلك المرآة التي تنعكس عنها شتى الانفعالات النفسية التي يجيش بها الصدر وينبث لها القلب ؛ وبمقدار ما يكون لهذه المرآة من دقة الصنعة والاتقان يكون للشاعر من جودة الفن وغايته في الابداع والاحسان

ولعل ضرورة الوزن والقافية للشعر انما جاءت من ضرورة الرقص والموسيقى للغناء . فأنت لا تكاد تنبس ولو ببيت من الشعر إلا وتختار لالقائه أجود التوقيع ، وتقرنه باشارات قد تكون في الغالب مبهمة ، إلا أنها مع كل ذلك تدل على عاطفة كانت مكبوتة فظهرت ، وكانت هادئة فاضطربت

الشعر هو صورة الحياة في حقيقتها الأزلية

والشاعر هو تلك الريشة التي تظهر بواسطتها هذه الصورة والشاعرية هي القدرة على ابرازها في أجمل ألوانها وأزهى أشكالها

الشعر هو الألمُ والسرورُ ، هو الكآبة والحبور ، والشاعر

هو ذلك الذى تضطرب نفسُه بين موجات الحزن ونغمات الفرح . بل هو ذلك الشعاع الذى يصقلَ النفسَ ويرهف الحس ويهذبُ الشعور

الشعرُ يهذب الأفرادَ والدرامة تُصلح سوآت المجتمع ، ولذا أحسن تاسو الايطالى إذ يقول : ليس من مبدع إلاّ الله والشاعر[1] ، وليس من مدنية إلا بالدرامة

ثورة شلى الفكرية

لقد تمرد شلى على الهيئة الاجتماعية وخرج على جميع نظمها وتقاليدها الدينية والمدنيـة ، فانثال على الدولة والكنيسة بحملة متطرفة شعواء ، نقضت ما كان لهما فى نفوس الناس من الجلال والاحترام ، وكان يعلق كبير الأمل فى التخلص منهما ، وفى تحقيق مثله الأسمى على تلك الأفكار الثورية التى تلقحت بها عقول الناس من كتابات فولتير وروسو ومنتسكيو ، والتى كظمت مدة ثم انفجرت بالثورة الفرنسية ، ولكن لشد ما أسف اذ رأى ما منيت به أفكار الثوار من الاخفاق

ولما اندلعت نيران الثورة فى أسبانيا ونابولى وأثينا ثانية بدت له — فى عالم الخيال — بارقة أمل جديدة فى تحقيق مثله الأسمى ، فأخذ يتغنى بهمة الثوار ويستفز حميتهم بشتى القصائد الرائعة كقصيدة « نابلى » وقصيدة « هيلاس » ولكن الثورة اشتدت ووضعت أوزارها ، دون أن تحقق له غرضاً من أغراضه التى مات وهو مصر عليها برغم ما لقيه من قوة السلطة وصدمة الحوادث

فكرة شلى عن الله

يرى شلى أن فكرة الانسان عن الله تشوه جماله كما يشوه الزجاج الملون منظر الأجسام التى من ورائه . وأنها فكرة خاطئة تتناقض ومبادئ العدل والانسانية العليا . ويقول إن الله لم يخلقنا لكى يعبث بنا فى الآخرة أو يجزى شرورنا بمثلها لأنه رحيم لا حد لرحمته ، ولأن الانتقام من صفات الانسان وليس من صفاته فهو والحالة هذه يشبه عمر الخيام إذ يقول[2] :

اذا كنت تجزى الذنب منى بمثله ... فما الفرق ما بينى وبينك يا ربى

وَيستأنف فى قوله إلى أن ليس لله كيان مستقل بذاته بل هو متمثل فى جميع مظاهر الكون وكائناته من انسان وحيوان . فليس ما نشعر به فى عواطفنا من عوامل الخير والفضيلة والاحسان والشفقة أو ما نشاهده فى الدودة التى تعيش فى باطن الأرض من المحبة والاطمئنان إلا من مظاهر ذلك الآله العادل

لقد تصور شلى فى الانسان اسمى ما يمكننا تصوره ، وراح يعرض هذه الصورة الجديدة على معاصريه المتزمتين بلسان عي وخلق سرى ، بل بيد جذاء وكنانة جوفاء الا من ذخيرة الايمان بدعوته . ولذا فلا عجب إذا وقرت دونه آذانهم ، بعد أن أذاقوه من لاذع النقد ومر التقريع شأن ما يلقاه أصحاب البدع فى كل جمهور متزمت

وفى عام ١٨١١ نشر رسالة مطولة : عنوانها « حاجتنا الى الالحاد » دعا فيها جميع الأساتذة الى الالحاد أو الى تفنيد آرائه ودحضها بالمناقشة ، ولكنهم ألقوا بدعوته دبر آذانهم ثم طردوه من الجامعة هو و « السير توماس جفرسن » المتشرع المشهور لأنه استجاب لدعوته واعتنق جميع مبادئه

وفى عام ١٨٥٨ ألف « توماس جفرسن » كتاباً عظيما عن صديقه شلى أكسبه شهرة واسعة فى الأوساط الأدبية ، وقد نشره تحت عنوان (Uncomplete life of Shelliy) وهو يتضمن حياة شلى وتعاليمه مذيلة بشروح عظيمة لا نعثر عليها فى غيره

آراء الأدباء فى شلى

يقول روبرت براونتج : لقد هاجم شلى مبادىء المجتمع العظيمة دون أن يتحقق صحيحها من فاسدها ، وغثها من سمينها ، ونسب الى الكنيسة والحكومة الشيء الكثير ، مما يزرى بشأنهما ويحط من مقامهما فى أعين الناس . ولقد كان فى حملته التى شنها على العرف والعادات ، وعلى الشرائع والديانات ، يُقاد بثورة العاطفة لا بتمحيص العقل ، وبنشوة الشباب لا برصانة الفكرة ؛ وكان يلقى بأحكامه جزافاً قبل أن يعمل فيها مشرط العقل وقبل أن يعرضها على محك الاختبار

ويقول سوينبرن : إن إعجابى بشلى عظيم لا ينتهى ، وما ذاك إلا لفرط محبته الواسعة لجميع المخلوقات ، تلك المحبة التى تقرن اسمه بالمسيح ما دام فى الكون فقراء ومساكين . لقد درس آراء افلاطون — ولا سيما كتابه Symposism — وتغلغل فى ثناياها

(١) هكذا فى الأصل Non merita nome di creatore, de non Iddio ed il poeta

(٢) راجع رباعيات الخيام

بأسمى ما عرفه الانسان من المثل العليا ، تلك المُثل التى صرف فى تحقيقها ريق العمر وزهرة الشباب فما أفلح

ويقول أرنولد : ثلاثة ينبغى تقديسهم : بوذا لتضحيته ، والمسيح لمحبته ، وشلى لانسانيته

ويقول بيكوك : مهما يكن من الحاد شلى فانى أرى فيه مثال الدين الصحيح لاقباله على عمل البر وحدبه على الفقراء . فقد شهدته مرة وقد ابتاع من أحد التاجر بجهراً ، فما لبث أن أودعه لساعته عند تاجر آخر وأخذ مقابله قليلاً من المال ، ورأيته يركض بعد ذلك بخطوات فسيحة لينقذ بائساً رآه فى وهدة الشقاء . وكانت تلك الكمية صبابة ما بقى لديه من المال .

حياته وزواجه :

دخل شلى مدرسة أتن عام ١٨٠٤ ، وكان لا يزال فى الثانية عشرة من العمر ، ثم تركها والتحق بجامعة اكسفورد حيث طُرد منها عام ١٨١١ بسبب رسالته الالحادية . وفى شهر يونيه من السنة نفسها تزوج « هاريت وستبروك » وارتحل الى بلدة « كزوك » هرباً من تعنت والده ، وهناك التقى « بسوثى » أحد شعراء اقليم البحيرات البارزين . ثم أخذ يتعاطى مهنة الصحافة مع (وليم فودوين) السياسى الشهير فتشرب منه روح السياسة . وفى عام ١٨١٢ سافر الى ارلندا ودبلن حيث أخذ يؤلب الناس على الكنيسة الرومانية ، فاستجاب له خلق كثير وأعرض عنه الباقون

وفى سنة ١٨١٣ ولدت له هاريت صبية دعاها « لانث » . ثم ارتحل الى أدنبره وألقى هناك عصا التسيار مدة من الزمن ، كان يستجم فيها ويُعد العدة لحملة جديدة يحمل بها على الدين والمجتمع معاً . وفى مستهل عام ١٨١٤ برزت هذه الحملة الجديدة فى رسالته التى نشرها تحت عنوان « تفنيد وحدانية الله The refutation of deism » ، وفى العاشر من شهر ديسمبر اضطرب حبل مودته مع زوجه هاريت ، فطلقها وتزوج من عشيقته مارى ولستونكرافت ابنة الصحافى الكبير فودوين ، وبعدها سافر الى سويسرا ثم الى فرنسا ، وفى أثناء غيابه ولدت منه زوجه الأولى هاريت صبياً دعته شارل بيش . وما ان رجع من رحلته هذه الا وقد توفى جده بيش شلى فورث عنه أموالاً طائلة

وفى عام ١٨١٦ ولدت له زوجه مارى ولداً سماه وليم شلى إلا أنه لم يُعمر طويلاً بل توفى بعد عامين من ولادته . وفى شهر ابريل التقى بكيتس لأول مرة ، وكانت قد اشتدت روابط الصداقة بينه وبين اللورد بيرون

وفى العاشر من شهر ديسمبر ألقت « هاريت بنفسها فى اليم وما أُخرجت من الماء إلا وهى جثة هامدة . وهكذا أصبحت مارى ولستونكرافت زوجه الشرعية »

وفى عام ١٨١٧ سافر إلى إيطاليا وأقام هناك ، وكانت محكمة شانسرى قد حرمته من حضانة ولديه من زوجه الأولى (هاريت) . وفى ايطاليا تفرغ شلى لقرض الشعر ولدراسة الآداب دراسة جدية

وفى الثامن من شهر يوليو لعام ١٨٢٢ بينما كان يسبح فى خليج بيزا لقيه اليم بموجة عظيمة كان فيها حتفه إذ ألقته على الشاطئ جثة هامدة . ثم أحرقت جثته فوق رمال ذلك الشاطئ على مشهد من صديقه اللورد بيرون ووضع رماده فى قبر أُعدّ له فى روما . وكان قد أوصى فى حياته بألا ينقش على ضريحه إلا تاريخ ولادته ويوم وفاته والكلمة الآتية : Désillusionné ومعناها غير مغرور

وفى بعض المصادر نجد أنه أوصى بنقش هاتين الكلمتين لا الأولى وهما قلب القلوب Heart of Hearts ولعل الأولى أقرب إلى الصواب

وهكذا طوت الأيام تلك الصفحة المجيدة المملوءة بجليل المآثر والحافلة بعظيم الأعمال

(شرق الأردن) خليل محمد الطوال

مصادر المقال

1— Shelley : I Adonais. II Revolt of Islam. III Prometheus un baund
2— Maculay : Essay on Shelley
3— Becon : His Essays.
4— Harjhtt : Critic sms, of poetry and drama
5— Stopford : English literature VI. II
6— Browing : Essay on Shelley
7— W. H. Stepheus : Introduction to the Study of English Literature
8— Bagchat : Essay on Shelley
9— Hughes : The Introduction to Shelley prose and poetry
10 رسالة الغفران للمعرى تأليف الكيلانى